أُرَاعى النجْمَ فى سَيْرى إليكُمُ   ويرعاهُ مِنَ البَيْدا جوَادِى

فكلمة (وراء) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بَعْد) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود] وتأتى بمعنى (غَيْر) كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

الصُّور : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول لُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .

فحين ينفى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ النسب يقول : ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ .. (١٠١) ﴾ [المؤمنون] فليس النفى لوجود النسب ، فإذا نُفخ فى الصور منعت البُنوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البنوة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر في دفع الشر ، فالنفى هنا لهذه المنفعة فى هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوى وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أمّا فى هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

ويقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

لذلك حينما حدَّثَ رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد(١) .

إذن : النفى لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده ، وخاطبه

---

(١) عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ : يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ قال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٩٠) والنسائى فى سننه (٤/ ١١٤) . والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٦٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع .

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتـزُّون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة ، وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[1] - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أُشرِب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرِم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »[2] .

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز[3] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر[4] فقال له مصعب : اشدد على

(١) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ، وبعثه ﷺ إلى المدينة يُعلِّم مسلميها الفقه ويقرئهم القرآن ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية ، وكان مصعب رقيق البشرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفى فى غزوة أحد . [صفة الصفوة ١/٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطّق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) إسناده حسن .

(٣) هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكنى) .

(٤) اسمه كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبد المطلب . كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣] . وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة » . وقال (٧/٢١٨) « بفتحتين » .

أسيرك ـ يعنى : إياك أن يفلت منك ـ فإن أمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوباً قَصيراً ، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رِجلَيْه انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رِجلَيْه من الإذخر »[1] .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان ، ولَمّا علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجيء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها[2] .

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحّتْهُ جانباً ، ومنعتْه أن يجلس ـ وهو كافر ـ على فراش رسول الله ،

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) ، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه .

(٢) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣١/٢) : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل : وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها ، وذلك سنة سبع من الهجرة » .

فقال: أضننًا بالفراش عليَّ ؟ فقالت : نعم(١) .

إذن : نَفْع الأنساب يمتنع فى الدنيا قبل امتناعه فى الآخرة ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تفضّل بأن أبقى مطلوبات النسب فى الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيت الكافر فى شدة وقدرت أن تُعينه فَأَعِنْه .

واقرأ فى هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويُرْوَى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أن يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتركه ينصرف ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسعْتُ عبدى وهو كافر بى ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة ؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له فى شأنه ، فقال الرجل : نعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

---

(١) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/٣٣) « أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر » ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيـرونَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجـودك ، وهو الأب أو الأم ، فـالنسـب وإن كـان مـيـلاد شىء من شىء ، أو تفرُّع شىء من شىء ، فـهناك نسب أعلى ، لا لمَنْ أوجدك بسـبب ، وإنما لمن أوجـدك بلا سبب الوجـود الأول ، فكان عليك أن تراعى هـذا النسب أولاً الذى أوجـدك من عـدم ، وإنْ أثبت حـقـاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك . فكيف بالموجد الأعلى ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون] سأل : تقـتضى سائلاً ومسئولاً ، أمَّا الفـعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كـما تقول : شارك محمد عمرًا ، وقاتل .. الخ .

وقد اعتـرض على هذه الآية بعض المستشرقـين الذين يحبون أن يتوركوا على كـتاب الله ، قائلين : إن المسلمـين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقـولهم عن تعقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] ؟

يقول هؤلاء : إن القـرآن نفي التساؤل في هذه الآية ، وأثبـته فى قوله تـعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾ [الطور] فى الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المـؤمنين والكافرين : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)﴾ [المدثر]

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور]

إذن : كيف بعد ذلك ينفى التساؤل ؟ ويقول : ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون]

وهذا التضارب الذى يرونه تضارب ظاهرى ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تسمع عن شيء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون]

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصُّور ، وداهمتهم القيامة التى كانوا يُكذِّبون بها بُهتوا ودُهشوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مَفرَّ منه ، فيبدأون بالكلام ويسأل بعضهم بعضاً عمَّا هم فيه وعمَّا نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونَفْى السؤال له زمن ؛ لذلك يقولون فى مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكَّة ، فإذا رأيتَ شيئاً واحداً أُثبتَ مرة ، ونُفى أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ، فاعلم أن الجهة مُنفكَّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضاً فى سؤال أهل المعاصى ، حيث يقول تعالى فى إثبات سؤالهم : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] ويقول فى نفى سؤالهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل واحد ؟

وهذا الاعتراض منهم ناشيء عن عدم فَهْم للغة القرآن والمَلَكة العربية ، أو لأنهم يريدون مجرد الاستدراك على كتاب الله وإثارة الشكوك حوله . لكن رُبَّ ضارَّة نافعة ، فقد حرّكت شكوكهم ومآخذهم علماء المسلمين للتصدِّى لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمثلنا كمثل الذى يستعد لملاقاة المرض بالطُّعْم المناسب الذى يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان القرآن ينطق على وَفْق ما يريد ، يرى الناس يُقبِّلون الحجر الأسود ، فتوقع أن يتكلم الناس فى هذه المسألة ، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهى حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر ، وكان رضى الله عنه يُقبِّله ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك »[1] .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادةَ لها عندنا ، لكن عندنا النبى ﷺ وهو مُشرِّع لنا وواجب علينا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكلم عمر فى غلاء المهور وكان مُلْهماً يوافق قولُه قولَ القرآن الكريم ، وقفتْ له امرأة وراجعته وقالت له : أخطأتَ يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء فى المهور ، والله تعالى يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا .. (٢٠) ﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٩٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . قال الطبرى : « إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان» أورده ابن حجر فى الفتح (٣/٤٦٣) .

فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمر بجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »[1] ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل في أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نفاه القرآن مرة وأثبته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال في الأسلوب العربي إما سؤال ممَّنْ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ مُعلِّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسألكم ليعرف منكم ، إنما يسألكم لتقروا ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونَفْيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم ؛ لتكون الحجة ألزم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذي يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأله والده لم يجده حصَّل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/٤٦٧) بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » أخرجه الزبير بن بكار . قال ابن كثير : فيه انقطاع . وأورده أيضاً بنحوه وعزاه لأبي يعلى . قال ابن كثير : إسناده جيد قوي .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] هكذا نفى وإثبات فى آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفْنة من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء[1] ، لكن هل فى قدرته أن يُوصِّل هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً ؟ فالعمل والرمى للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثَقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات. يعنى: كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .

ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسيئات يعنى : كَثُرَتْ الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة فى الأمر الحسنات .

والميزان يقوم على كِفَّتين فى أحدهما الموزون ، وفى الأخرى الموزون به ، وللوزن ثلاث صور عقلية : أن يخفّ الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت

---

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً . فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم . فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية فى سورة الأعراف :

﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف]

فمَنْ غلبت حسناته ذهب إلى الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته ذهب إلى النار ؛ وبقى أهل الأعراف بين الجنة والنار ؛ لأنهم تساوت عندهم كفَّتا الميزان ، فلا هو من أهل الجنة ، ولا هو من أهل النار ، فهم على الأعراف ، وهو السُّور بين الجنة والنار ينظرون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

ثم يقول تعالى فى شأنهم : ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾ [الأعراف] ؛ لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، وعفوه سبق عقابه .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجِرْم يعطى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق فى كل عمل له كتلة ، فحسنةٌ كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقَّة الفَصْل والحساب .

ونلحظ فى الآية : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. (١٠٢)﴾ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا ؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم تُجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٠٣)﴾ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوَّتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية ؛ لأن الدنيا

أجلها محدود ؛ والزمن فيها مظنون، والخير فيها على قَدْر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مُتيقّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قَدْر إمكانات المنعم عَزَّ وجَلَّ ، فلو قارنتَ هذا بذاك لـتبيّن لك مدى ما خَسِروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبشّع الجزاء في جهنم ، وتُصوِّر أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن ننجى أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدى الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة القصاص : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

وقد هُوجم القصاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفى أن قُتل واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع القصاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبَّروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى فى تبشيع جهنم :

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾

اللفْح : أن تمسَّ النار بحرارتها الشيء فتشويه ، ومثله النَّفْح[1]

---

(١) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن النفح أعظم تأثيراً منه . قال أبو منصور : ومما يؤيد قوله قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] [لسان العرب ـ مادة : لفح] .

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة « كالح » نقـولها حتى فى العامية : فلان كالح الوجه . يعنى : تغيّر وجهه تغيُّراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكـالح مثالاً برأس الخروف المشـوية التى غيَّرت النار ملامحها ، فأصبحت مُشوَّهة كالحة تلتصق الشَّفَة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه فى شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبـحانه خطاباً يُلقى اللوم عليه ويُحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولاً يحمل منهـجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العـاصى ، ونبَّـههم إلى كـل شىء ، ومع ذلك عصَـوْا وكـذَّبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وَفْق ما أمر الله . إذن : فهُم المقصرون .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يعنى : أنتم السبب فـيما أنتم فيـه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النارَ يخـاطبـهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [الزمر]

فـالآية تثبت أنهـم هم المذنبـون أمـام نفوسـهم : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل] فلم نفاجئـهم بعقوبة على شىء لم نُبـصِّرهم به ، إنـما أرسلنا إليـهم رسـولاً يأمرهم وينهـاهم ويُبشِّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قـبل أن يقع نعمة من النعم ، كمـا قلنا فى سورة الرحـمن عن قوله تعـالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ؛ لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ فى سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات - كما قلنا - تُطلَق على الآيات الكونية التى تلفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذى أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطلَق على المعجزات التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلَق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذَّبْتم ، ومعنى ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٠٥) ﴾ [المؤمنون] أننا نبهناكم إليها ، ولفتْنَا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (١٠٦) ﴾

﴿ شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أى : الشقاوة[1] وهى الألم الذى يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقى يعنى مُضيَّق عليه ومُتعَب فى كل أمور حياته ، لا يرى راحة فى شىء منها .

وكأنهم بقولهم : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] يريدون أن يُبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقون بها عند الله تعالى ، يقولون : يا ربَ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً ؛ لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا .

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٨٧) : « قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصماً « شقاوتنا » » .

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم فى آية أخرى :
﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

﴿ اخْسَئُوا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة بليغة فى الزجر تعنى : السكوت مع الذلّة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدَّثك عن فضلك عليه ، وأنك قدَّمْتَ له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، وألاَّ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمُّل الشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك] يعنى : ضعيف عن تحمُّل الضوء .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : مطرودون مُبْعدون عن سُمو الإنسانية وعزّتها ؛ لذلك نرى القردة مفضوحى السَّوْءة ، خفيفى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العِرْض وانكشاف العورة .

إذن : المعنى ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلّة وهَوَان ، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت[1]، وكانوا يقولون هذا الكلام ، وهو كلام طيب لا يرد ، بل يجب أن يُسمع ، وأن يُحتذَى به ، ويُؤخذ قدوة .

﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

تكلمنا عن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[2] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخرية واستهزاء ، وبالغوا فى ذلك ، حتى لم يَعُدْ لهم شُغل غير هذا ، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية

---

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٨٨) .

(٢) فكهين : أى يغتابون الناس ويتناولون منهم ويتندرون بهم ، والفكه : الذى يُحدِّث أصحابه ويضحكهم . [لسان العرب ـ مادة : فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي .. (١١٠)﴾ [المؤمنون] أى : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمَنْ خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقَّف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضحكوا أهلهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾ [المؤمنون] وفى الآية الأخرى : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوَّضهم الله تكريماً ونعيماً ، وهذه مسألة يجب ألاَّ يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإنْ كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرِّم لك ربك بقدرة لا حدودَ لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذى تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢)﴾

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التى ظللتموها فى الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا : لأن الذى شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعيماً باقياً هو الدنيا التى صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا فى الدنيا - فهل يُقارن بما أعدَّ للمؤمنين فى الآخرة من النعيم المقيم الذى لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا فى ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث فى الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التى لبثوها فى الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتَّى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر بالزمن ؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدرى المدة التى نامها ، وكُلُّ مَنْ سُئِلَ هذا السؤال قال ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

قالها العُزَير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة ؛ لأن الزمن ابْنُ الحدث ، فإنِ انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عمَّنْ ماتوا حتى من أيام آدم عليه السلام : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً فى الإجابة على هذا السؤال :

﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾

أى : أصحاب العدِّ الذين يمكنهم العدُّ والحساب ؛ لأننا لم نكن فى وعينا لنعُد كما لبثنا ، والمراد بالعادِّين هم الملائكة الذين يعدُّون الأيام ويحسبونها[1].

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٦٩٠) فى معنى (العادِّين) قولين :
- الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك . قاله قتادة .
- الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا . قاله مجاهد .